الوقفة الثالثة: قصة بلعم بن باعوراء

قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ (الأعراف).

❁ ❁ ❁

درس عظيم ونافع يسوقه القرآن الكريم من خلال عرضه لهذه القصة الحقيقية من قصص الأمم السابقة. كانت لعالِم من علماء بني إسرائيل. إنه **(بلعم)**، أو **(بلعام بن باعوراء)** يضربه الله تعالى مثلاً لكل عالم فُتِن بعلمه، ولكل عالم فَتنتْهُ الدنيا بزخارفها وزينتها؛ فضلَّ وخاب وخسر.

✓ مع أحداث القصة:

ولندخل إلى القصة ذاتها كما روَتْها كتب السيرة وكتب التفسير. والقصة لها أكثر من رواية... لكننا نلخص ما جاء من مجموع هذه الروايات، ونميل إلى القول الذي يرجح أنها نزلت في **(بلعم بن باعوراء)**.

تقول القصة: بأن (بلعم) أو (بلعام) هذا كان رجلاً من علماء بني إسرائيل يقيم مع الجبَّارين في بيت المقدس، وكان يعلم اسم اللّٰه الأعظم. وكان رجلاً مجاب الدعوة يقدِّمونه في الشدائد.

لَمَّا نَزَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَرْضِ بَنِي كَنْعَانَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، أَتَى قَوْمُ بَلْعَامَ إِلَيْهِ، فَقَالُوا لَهُ: هَذَا **مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ** فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَدْ جَاءَ يُخْرِجُنَا مِنْ بِلادِنَا وَيَقْتُلُنَا وَيُحِلُّهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِنَّا قَوْمُكَ وَلَيْسَ لَنَا مَنْزِلٌ وَأَنْتَ رَجُلٌ مُجَابُ الدَّعْوَةِ، فَاخْرُجْ فَادْعُ اللّٰهَ عَلَيْهِمْ، قَالَ وَيْلَكُمْ نَبِيُّ اللّٰهِ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ. كَيْفَ أَذْهَبُ أَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَأَنَا أَعْلَمُ مِنَ اللّٰهِ مَا أَعْلَمُ؟ قَالُوا لَهُ: مَا لَنَا مِنْ مَنْزِلٍ. فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ يُرَقِّقُونَهُ وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى فَتَنُوهُ فَافْتُتِنَ، فَرَكِبَ حِمَارَةً لَهُ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْجَبَلِ الَّذِي يُطْلِعُهُ عَلَى عَسْكَرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُوَ جَبَلُ (حُسْبَانَ)، فَلَمَّا سَارَ عَلَيْهَا غَيْرَ كَثِيرٍ رَبَضَتْ بِهِ، فَنَزَلَ عَنْهَا فَضَرَبَهَا، حَتَّى إذا أزلقها قَامَتْ فَرَكِبَهَا، فَلَمْ تَسِرْ بِهِ كَثِيرًا حَتَّى ربضت به فضربها، حتى إذا أزلقها أذن لَهَا فَكَلَّمَتْهُ حُجَّةً عَلَيْهِ فَقَالَتْ: وَيْحَكَ يَا بَلْعَمُ أَيْنَ تَذْهَبُ؟ أَمَا تَرَى الْمَلائِكَةَ أَمَامِي تَرُدُّنِي عن وجهي هذا؟ تذهب إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ لِتَدْعُوَ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَنْزِعْ عَنْهَا يَضْرِبُهَا فَخَلَّى اللَّهُ سَبِيلَهَا حِينَ فَعَلَ بِهَا ذَلِكَ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ حَتَّى إِذَا أَشْرَفَتْ بِهِ عَلَى رَأْسِ (حُسْبَانَ) عَلَى

عَسْكَرِ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ جَعَلَ يَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَلا يَدْعُو عَلَيْهِمْ بَشَرٌ إِلا صَرَفَ اللَّهُ لِسَانَهُ إِلَى قَوْمِهِ، وَلا يَدْعُو لِقَوْمِهِ بِخَيْرٍ إِلا صَرَفَ لِسَانَهُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ لَهُ قَوْمُهُ: أَتَدْرِي يَا بَلْعَمُ مَا تَصْنَعُ؟ إِنَّمَا تَدْعُو لَهُمْ وَتَدْعُو عَلَيْنَا، قال فهذا ما لا أَمْلِكُ، هَذَا شَيْءٌ قَدْ غَلَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

قَالَ: وَاندَلَعَ لِسَانُهُ فَوَقَعَ عَلَى صَدْرِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: قَدْ ذَهَبَتْ مِنِّي الآنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلا الْمَكْرُ وَالْحِيلَةُ، فَسَأَمْكُرُ لَكُمْ وَأَحْتَالُ، جَمِّلُوا النِّسَاءَ وَأَعْطُوهُنَّ السِّلَعَ، ثُمَّ أَرْسِلُوهُنَّ إِلَى الْعَسْكَرِ يَبِعْنَهَا فِيهِ، وَمُرُوهُنَّ فَلا تَمْنَعُ امْرَأَةٌ نَفْسَهَا مِنْ رَجُلٍ أَرَادَهَا، فَإِنَّهُمْ إِنْ زَنَى رَجُلٌ مِنْهُمْ وَاحِدٌ كُفِيتُمُوهُمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمَّا دخلت النِّسَاءُ الْعَسْكَرَ مَرَّتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْكَنْعَانِيِّينَ بِرَجُلٍ مِنْ عُظَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُوَ (زَمْرَى بْنُ شَلُومَ) رأس سبط شمعون بن يعقوب، فلما رآها أعجبته، فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى وقال: إِنِّي أَظُنُّكَ سَتَقُولُ هَذَا حَرَامٌ عَلَيْكَ؟ قَالَ: أَجَلْ هِيَ حَرَامٌ عَلَيْكَ لا تَقْرَبْهَا، قَالَ فو الله لا أطيعُك في هذا، فدخل بِهَا قُبَّتَهُ فَوَقَعَ عَلَيْهَا، وَأَرْسَلَ اللَّهُ ﷻ الطَّاعُونَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ (فِنْحَاصُ بْنُ الْعَيْزَارِ بْنِ هَارُونَ) صَاحِبَ أَمْرِ مُوسَى، وَكَانَ غَائِبًا حِينَ صَنَعَ (زَمْرَى بْنُ شَلُومَ) ما صنع، فجاء والطاعون يَجوسُ فيهِمْ فَأُخْبِرَ الْخَبَرَ،

فَأَخَذَ حَرْبَتَهُ وَكَانَتْ مِنْ حَدِيدٍ كُلُّهَا. ثُمَّ دَخَلَ الْقُبَّةَ وَهُمَا مُتَضَاجِعَانِ فَانْتَظَمَهُمَا بِحَرْبَتِهِ، ثُمَّ خَرَجَ بِهِمَا رَافِعُهُمَا إِلَى السَّمَاءِ ... وَجَعَلَ يَقُولُ «اللَّهُمَّ هَكَذَا نَفْعَلُ بِمَنْ يَعْصِيكَ»، وَرُفِعَ الطَّاعُونُ، فَحُسِبَ مَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الطَّاعُونِ فِيمَا بَيْنُ أَنْ أَصَابَ (زَمْرَى) الْمَرْأَةَ إِلَى أَنْ قَتَلَهُ (فِنْحَاصُ)، فَوَجَدُوهُ قَدْ هَلَكَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَالْمُقَلِّلُ لَهُمْ يَقُولُ: عِشْرُونَ أَلْفًا فِي سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ.

فَفِي بَلْعَامَ بْنِ بَاعُورَاءَ أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾.

هذه رواية محمد بن إسحاق [1].

وفى رواية السُّدِّيِّ: « لَمَّا انْقَضَّتِ الأَرْبَعُونَ سَنَةً الَّتِي قَالَ اللَّهُ ﷻ فيها ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ بَعَثَ (يُوشَعَ بْنَ نُونٍ) نَبِيًّا فَدَعَا بَنِي إسرائيل فأخبرهم أنه نبيٌّ، وأن اللّه أَمَرَهُ أَنْ يُقَاتِلَ الْجَبَّارِينَ، فَبَايَعُوهُ وَصَدَّقُوهُ، وَانْطَلَقَ رجلٌ من بني إسرائيل يقال له **(بلعام)** فكان عَالِمًا يَعْلَمُ الاسْمَ الأَعْظَمَ الْمَكْتُومَ فَكَفَرَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - ، وَأَتَى الْجَبَّارِينَ وَقَالَ لَهُمْ: لا تَرْهَبُوا بني إسرائيل، فإني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عَلَيْهِمْ

(١) تفسير ابن كثير (٣/٤٦٠- ٤٦١).

دَعْوَةً فَيَهْلِكُونَ »[١].

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: « كَانَ مِنْ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ مُجَابَ الدَّعْوَةِ يُقَدِّمُونَهُ فِي الشَّدَائِدِ. بَعَثَهُ نبيُّ اللَّهِ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إِلَى مَلِكِ مَدْيَنَ يَدْعُوهُ إِلَى اللَّهِ فَأَقْطَعَهُ وَأَعْطَاهُ، فَتَبِعَ دِينَهُ وَتَرَكَ دِينَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ »[٢]، وقيل غير ذلك.

والقصة بمجموع رواياتها تصل في النهاية إلى شيء واحد. فهي تحكي شخصية من نوع غريب، شخصية فريدة، وإن كنت أرى أنها شخصة موجودة في كل زمان، وإن اختلفت المسمَّيات، وتنوعت الصور والأشكال، وهي قصة تنطوي في محتواها على كثير من الدروس والعبر.

حيث أمر الله تعالى نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقص على الناس قصة ذلك العالم الذي لم ينتفع بعلمه، فقد فتنته الدنيا، وفتنه علمه، وفتنه هواه، فاستمع لكلام أهل الأهواء من حوله فأضلوه عن سبيل الله تعالى، فكفر بربه الذي خلقه وهداه، وعلمه وأعطاه علمًا لم يقدِّر له قدره، ولم يحفظ له شرفه، فكان من الغاوين الهالكين.

وبشيء من التأمُّل والتدبُّر نقف أمام هذه العبارات القرآنية

---

(١) المصدر السابق (٤٥٨/٣).
(٢) المصدر السابق (٤٥٧/٣).

التي جاءت في سياق آيات القصة؛ والتى تحمل من الدلالات والإشارات ما يجسِّد معاني هذه القصة تجسيدًا يجعلنا نعيش معها بكل مشاعرنا.

ففى قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ تعبير يشير إلى غزارة وقدر العلم الربانيِّ الذي وهبه رب العزة جلَّ وعلا لهذا الرجل حتى صار وكأنه جلده الذي يكسو بدنه كله، أو كالثوب السابغ الذي يغطي جسده من رأسه إلى قدميه، فكان علَمًا ورمزًا لأهل العلم. لقد أعطاه اللّٰه تعالى من الآيات الواضحات، ومن مكنون علمه سبحانه مالم يعطه لغيره في زمانه، حتى علم الاسم الأعظم للّٰه جلَّ في علاه، بل صار مستجاب الدعوة، يلجأ الناس إليه في الشدائد.

ثم هو بعد ذلك يخرج من هذا الثوب السابغ من العلم، وينسلخ من هذا الجلد الشريف الغالي الرفيع الذي نال بسببه شرف الدنيا والآخرة. ينسلخ إلى الدناءة والدنس إلى أحطِّ المنازل، وأدنى الدركات، بسبب فتن الدنيا وأهوائها.

ثم تأتي العبارة، وهي قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾. وكلمة ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ بهذا الضبط تختلف تمامًا عن كلمة **(اتَّبَعَه)**.

فالأولَى تبيِّن كيف أن الشيطان اللعين سار مسرعًا خلف هذا الرجل، كالذئب المفترس الذي يلاحق شاة شذَّت عن قطيع الغنم، أو كالعدو الغادر الذي يريد أن يُجْهِزَ على خصمه بعد أن انفرد به في طريق وليس معه ما يدفع به عن نفسه كيد هذا العدو.

أما كلمة **(اتَّبَعَه)** فهي تعني أن الشيطان اتبع هذا الرجل حتى صار من جنده وأتباعه المطيعين لأمره. ولا شك أن المعنى الأول هو المقصود من العبارة، فإنه لما كان هذا العلم هو الحصن الحصين والدرع الواقي والحجة القوية لهذا الرجل أمام قوى الشر والضلال، فبمجرد أن خرج من هذا الحصن، وخلع هذا الدرع، وترك حجته التي هي سلاحه. هجم عليه عدوه وتغلب عليه وقهره، فلم يستطع له دفعًا، فكان من الهالكين.

ثم يقول الحقُّ سبحانه: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾. سبحان الله!!

عبارة ما أبلغَها، وما أعظمَها!! فالحق جلَّ في علاه يبين أن العِلْمَ يرفع أهله. وأن الدين يرفع أهله المتمسِّكين به. فالله تعالى يقول في معنى الآية: لو أراد الله تعالى، وشاء وقدَّر لهذا الرجل لرفعه بهذا العلم، مع أنه من الأصل مرفوع، يعني

لازداد رفعةً وقدرًا وشأنًا، لو أنه حافظ على هذا العلم الرباني ولم يُسِئ استعماله، لكنه - للأسف - فضَّل الغثَّ على السَّمين، وآثر الحقير الوضيع على الشامخ الرفيع، ورضي لنفسه أن ينحطَّ إلى الأسفل. فنزل من علياء السعادة إلى أدنى دركات الشقاء، فأخلد إلى الأرض باتباعه لهواه، ولِمَا اشتهت نفسه من زخارف الدنيا، ومتعها وغرورها. وصدق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ يقول: { **إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ** }[1].

ولذلك جاءت العبارة التالية لتزيد المعنى تجسيدًا وتوضيحًا، وهي قوله تعالى: ﴿**فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث**﴾ فقد اختار لنفسه أن يترك عالم الرقيِّ الروحيِّ، وحياة الطهر والنقاء، إلى مستنقع الضلال، ويبحث فيه عن خبث الأماني، ودنس المطامع، فاستحق أن يلحق بالوصف إلى أخسِّ المخلوقات، وهو الكلب الذي يطوف بالمزابل بحثًا عن الجيَف.

قال ابن كثير: « فَمَنْ خَرَجَ عَنْ حَيِّزِ الْعِلْمِ وَالْهُدَى، وَأَقْبَلَ عَلَى شَهْوَةِ نَفْسِهِ، وَاتَّبِعْ هَوَاهُ، صَارَ شَبِيهًا بِالْكَلْبِ، وَبِئْسَ الْمَثَلُ مَثَلُهُ، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) أخرجه مسلم، ح (٨١٧)، عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ: { لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ، الَّذِي يَعُودُ فِي هِبَتِهِ كَالكَلْبِ يَرْجِعُ فِي قَيْئِهِ }[1] »[2].

أما قوله: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ ففيه إشارة إلى أن مثل هذا لا ينتفع بموعظة ولا هدى، سواء شدَّدت عليه في ذلك وحاولت معه لينتفع بنصحك، أو تركته. فهو في الحالين واحد لا يُهِمُّه غير مطامعه الخبيثة وآماله التافهة، ولذلك عقَّب الحقُّ ﷻ بقوله: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ (الأعراف).

والقصة بما تحمل من معانٍ عظيمة تضرب مثلاً لكل عالِم اتخذ علمه مطيَّة لنيل غرضٍ دنيء. أو الوصول إلى غاية خبيثة، فأساء استخدام نعمة العلم الذي حباه الله ﷻ به، فإن العلم - أعني العلم بالله وآياته وشرعه - هو شرف من لا شرف له، وعِزُّ ما لا عِزَّ له. والعالِم دائمًا يعلو بعلمه في أنظار الناس، ويعلو كذلك بخشيته وتقواه لله في الملأ الأعلى. قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (المجادلة).

---

(١) أخرجه البخاري، ح (٢٦٢٢).
(٢) تفسير ابن كثير (٤٦٢/٣).

وإنما يرفعهم الله ﷻ إليه بخشيتهم إياه. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ (فاطر).

❁ ❁ ❁

والمتأمِّل لحال هذا الزمان، وما فيه من فتن متزاحمة قد اختلط فيها الحق بالباطل. وانقلبت فيه الموازين، واختلت المعايير، وأصبح فيه المال هو صاحب الكلمة، وصاحب الرأى والسطوة. فكم نرى فيه من شخصية (بلعم بن باعوراء) المئات والآلاف. ممن انسلخوا من علمهم، وتملَّصوا من قِيَمهم طمعًا فيما عند أصحاب الرياسات وأصحاب الوجاهات من دنيا دنيئة، ومطامع رديئة، وآمال قد يقطعها عليهم الموت المفاجئ ﴿فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ هؤلاء الذين باعوا دينهم بدنيا غيرهم، فراحوا يبدِّلون ويغيِّرون في أحكام شريعة ربهم من تحليل لما حرَّم الله، وتحريم ما أحلَّ اتِّباعًا لأهواء السلاطين والحكام. خلف ستار المصالح العامة المزعومة، وتيسيرًا على السياسات المشئومة، زعمًا منهم أن في فعلهم هذا اتِّباعًا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء).

فما أصدقَ القولَ !! لكن ما أسوأ الاستدلالَ به!! فإنهم لو

تأمَّلوا الآية بفهم وإنصاف لعلموا بحقٍّ ما هم فيه من جور وإجحاف، فإن طاعة أولي الأمر المذكورة في تلك الآية الكريمة إنما هي مشروطة بما فيه طاعة لله ورسوله، فليست طاعة أولي الأمر مستقلة منفردة، وإلا لكان أولى أن تسبق بعبارة ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فلما لم تسبق بفعل الأمر ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ عُلِم بالضرورة أن طاعة أولي الأمر مقيَّدة بطاعة الله وطاعة رسوله.

وفي الحديث: { **لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ** ﷻ }[1].

فهؤلاء وأمثالهم يقول فيهم النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { **مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ** ﷻ **لا يَتَعَلَّمُهُ إِلا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** }[2]. يعني: ريحَها.

أما كون **(بلعم بن باعوراء)** مستجاب الدعوة كما ورد ذلك في قصته. فهذا حق. لأنه بلغ من العلم والتقوى في أول أمره ما جعله يبلغ تلك المنزلة الكريمة.

وهذا وعد الله تعالى لكل عبد حقق الإيمان والتقوى،

---

(١) أخرجه أحمد، ح (١٠٩٥)، وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه أحمد، ح (٨٤٥٧)، وأبو داود، ح (٣٦٦٤)، وابن ماجه، ح (٢٥٢)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **وصحَّحه الألباني.**

وعمل بما علم. ووعد الله لا يتخلَّف أبدًا.

لكنه لما تدنَّى بنفسه وعلمه إلى هذا الحضيض، وأساء استعمال ما منحه الله تعالى من نعمة العلم والدين جعل دعاءه سبب نقمة وعذاب عليه وعلى قومه، ليحقق الله تعالى فيه عدله في قانونه الباقي، وهو **(الجزاء من جنس العمل)**.

ولعل هذا يعطينا درسًا آخر. وهو: أن الله تعالى - وإن كان يستجيب دعاء من دعاه بصدق - إلا أنه سبحانه لا يستجيب من الدعاء إلا ما وافق عدله وحكمته، فإن تعارضت المقاصد والأهواء مع مقتضى عدله وحكمته قضى قضاءه العدل الحكيم، ثم لا يحرم من دعاه أجر دعائه، ولا يرد يديه إليه صفرًا. وهذا ما يؤكده قول نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ مَا عَلَى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ إِلا آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ }**، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: **{ اللَّهُ أَكْثَرُ }**[1]، وفي رواية أخرى بزيادة: **{ أَوْ يَدَّخِرَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَهَا }**[2].

---

(١) أخرجه الترمذي، ح (٣٥٧٣)، وقال: حسن صحيح غريب، وأحمد، ح (٢٢٧٨٥)، عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، ح (١٨١٦). وقال: صحيح الإسناد عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كما أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الدعاء والقضاء يلتقيان في السماء فيعتلجان إلى يوم القيامة - يعني يتدافعان - وحاشا لله أن يقضي قضاءً عبثًا، أو يذهب قضاؤه سُدًى، فهو العليم بخلقه يعلم ما يصلحهم وما يفسدهم، وما يضرُّهم وما ينفعهم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (الملك).

فهل ينتفع علماء هذا الزمان بما جاء في هذه القصة من دروس، وهل يعتبرون بما مضى من ذكر للسابقين؟ فيترفعوا بعلمهم الذي يحملونه في صدورهم قد وَرِثوا خير ما ترك الأنبياء. فإن الأنبياء قد ورَّثوا العلم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ }** (١).

❁ ❁ ❁

أسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا. إنه وليُّ ذلك، والقادر عليه.

والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه الترمذي، ح (٢٦٨٢)، وأبو داود، ح (٣٦٤١)، وابن ماجه، ح (٢٢٣)، وأحمد، ح (٢١٧١٥)، وصحَّحه الألباني.